مجلة دراسات إسلامية
المجلد: 16 العدد: 01 السنة: 2021
ISSN 1112-8011 رقم
ص 9 – 24

الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم دراسة نظريّة تحليلية تفسيريّة وأصوليّة

The rhetorical miracle of the Holy Qur'an: a theoretical, analytical. interpretive and fundamentalist study.

عدنان بن مُحَّد أبوعمر *

الكلية الجامعية للأم والعلوم الأسرية، عجمان، الإمارات العربية المتحدة

draboomar71@hotmail.com

تاريخ الارسال: 2021/06/01	تاريخ القبول: 2021/06/13	تاريخ النشر: 2021/06/20

ملخص:

إنّ هذا البحث يعالج مسألة إعجاز القرآن الكريم من جهة بلاغته ولغته وأسلوبه في جزئيات ومفردات منها معتمداً في دراستها منهج الاستقراء والتحليل والمقارنة والاستنتاج، وقد تمكّنتْ هذه الدراسة من تحديد معنى الإعجاز البلاغي، وبم يُعلم، كما أثبتتْ عمومه في كامل النسق القرآني، وأنه واقع بطرفي الكلام مبناه ومعناه، كما تناولت بيان معقد البلاغة وعمودها الذي به تُقاس درجة الكلام في مراتب الفضل والشرف، لتعتمده بعد ذلك في قياس بلاغة القرآن الكريم، وقد انتهت إلى تقرير سموالقرآن في بيانه وبلاغته فوق قدرة البشر، وخروجه عن طاقتهم، وهوعين الإعجاز.

الكلمات المفتاحية: القرآن،الإعجاز، البلاغة، الأسلوب، الكلام، البيان.

Abstract:

This study aims to shed light on the reasoning of the fundamentalists and its effect on the legal rulings: a fundamentalist Islamic study. It reviewed the beginning of an introduction that contained the importance of the topic and its objectives, and posed the problem. The fundamentalists in the principle of reasoning and explained the effect of this fundamentalist reasoning on the legal rulings, including applied models to explain the legal rulings, the explanations of worship, and transactions, then concluded with the most important results.

* المؤلف المرسل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Key words: Quran, miracle, rhetoric, style, speech, statement

مقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، هدانا للإسلام، وأكرمنا بالإيمان، وعلّمنا البيان، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيّدنا مُحَمَّد إمام الأنبياء والمرسلين، وحامل لواء الإسلام يوم الدين، ورضي الله تعالى عن آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنّه ليكفي المؤمن فخراً أن يكون مشتغلاً بالقرآن الكريم تأمّلاً وتدبّراً وفهماً ودراسةً وحفظاً، وإنه لمقام عظيم وشأنٌ رفيع أن تشرف ملكاتنا وطاقاتنا بالخدمة لهذا الكتاب الجليل، فتُنفَق في رحابه، وتُصرَف في ميادين استجلاء معاينه ومراميه، وتُستنزف في استمطار حِكَمِه ومقاصده وأسراره، وأيّ نعمة أعزّ وأجلّ من أن يكون لأحدنا نصيب من القرآن الكريم، وما أوفر خيره، وما أغزر معينه !

هذا ولم يكن القصد من وراء هذا البحث منصرفاً إلى أكثر من ذلك، ولكم عظمت السعادة باتجاه القصد هذا المتَّجَه، ولكم عمّ السرور بتسديد الخطا نحوذاك الهدف.

صحيحٌ أنّ ميدان البحث في علوم القرآن ذا غنى ووفرة، لكن تلك الوفرة لا تحول بين أحدنا وبين خدمة كتاب الله عزّ وجلّ بأوجهها ومجالاتها المتعدِّدة؛ نظراً لكون معينه غزيراً لا ينضب من جهة، ولأنّ خدمته شرف يتطلّع إليه كلّ ساعٍ نحوالمعالي من جهة أخرى، ومن هنا تسابقت إليه جياد الأفهام، وتناضلت من أجله أسنّة الهمم ورماح العزائم.

وأيّاً ما كان الأمر فإن صفاء النية وسلامة القصد مع بذل الجهد واستفراغ الوسع مع الضبط والتحرّي كافٍ بفضل الله تعالى بالحظوة بالقبول عنده، ونوال شرف ذلك لديه.

وإنّما يشفع لهذا البحث حول إعجاز القرآن البلاغي تمحُّض القصد لله تعالى من ورائه، كما يشفع له ما حواه من مادة عليمة باشرت بالدراسة بعض مسائله، وما انتهت إليه من نتائج ومعارف، وما قررته من حقائق مما أسعف به توفيق الله تعالى، وأمدّتْ به معونته سبحانه.

والأمل بالله عز وجل أن يتفضّل بالقبول، ويتكرّم على كاتبه بالتوفيق والتسديد، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

أهمية البحث:

تتجلّى أهمية البحث في إعجاز القرآن عموماً وإعجازه البلاغي خصوصاً في أمورٍ منها:

1) أنّه بحث دائر في رحاب القرآن الكريم، وجارٍ مجرى لخدمة له في إحدى المسائل المرتبطة به.

2) أنّه بتقرير إعجاز القرآن وإثباتِهِ سلامةُ الدين كلّه؛ لأنه إذا ثبت كون القرآن مُعجزاً يثبت كونُه كلامَ الله تعالى يقيناً، وبثبوت ذلك سلامة القرآن وما فيه، وقيام الحجّة، وبسلامة القرآن وقيام الحجّة يسلمُ الدينُ كلّه.

3) أنّ البحث في إعجاز القرآن من ناحية بلاغته يُثمِر في جانبين، أما الأول فيُشبع حاجة الباحثين من خلال تلمّس المزيد من ملامح السمووالعلوّ، ومظاهر الرّفعة والرّقيّ في هذا الكتاب العزيز، وأما الثاني فيُغلق أفواه المتطاولين الناقمين بقيام الحجة وقوّة الدليل.

إشكالية البحث:

تكمن إشكالية البحث في التساؤل الآتي: إذا كان القرآن الكريم مؤلّفاً مما يؤلّف العرب كلامهم، فحروفه حروفهم، وكلماته كلماتهم، وجرى على عوائدهم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وسننهم في صناعة الكلام وإنشاء البيان، فكيف تأتّى لهذا الكتاب العزيز أن يتخطّى حدود القدرة البشرية، ويفوق طاقة الخلق بمبلغه الذروة العليا والغاية القصوى في مراتب الكلام والبيان، حتى انقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته والإتيان بمثله أوبمثل بعضٍ منه ؟!

والإجابة عن هذا التساؤل متروكة لما انطوى في هذا البحث، فقد تكفّل بها وتصدّى لها.

أسباب اختيار البحث:

دفع لاختيار هذا البحث والخوض فيه عوامل عدّة منها:

1) ما ورد في فقرة أهمية البحث، فإنّه يمثل أبرز الأسباب التي حدت بالكاتب نحواختيار بحثه، ودفعت به إليه.

2) تضمّن هذا البحث دراسة موجزة للإعجاز البلاغي في كتاب الله عز وجل، تمكن فيها من كشف الغطاء وإماطة اللثام في أجزاء ومفاصل منه وفق منهج علميٍّ هادئ ومنضبط بقدر ما أسعف به توفيق الله تعالى، وقد كان ذلك هدفاً لدى الكاتب سعى إلى بلوغه، ورام تحقّقه والحصول عليه .

الدراسات السابقة:

لا تكاد تخلوكتب علوم القرآن على وفرتها من الحديث عن إعجاز القرآن الكريم عامةً، ومن ناحية بلاغته ولغته وأسلوبه خاصّةً، فضلاً عن الكتب المؤلّفة في موضوع الإعجاز ودلائله ومظاهره على وجه الخصوص، ولسنا بصدد التقصّي لتلك المؤلفات، والإحاطة بتلك الدراسات، وإنّما نورد منها على جهة التمثيل:

أ – من كتب الأقدمين:

* دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.

* إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني.

* بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابي.

ب – من كتب المحدثين:

* إعجاز القرآن للرافعي.

* التصوير الفني في القرآن لسيد قطب.

* المعجزة إعادة قراءة الإعجاز في القرآن الكريم لأحمد ساعي.

منهج البحث:

سارت هذه الدراسة وفق منهج اعتُمِد فيه على الاستقراء والتحليل والمقارنة والاستنتاج، وذلك في تناولها لقضية الإعجاز البلاغي في كتاب الله عزّ وجلّ، وباشرت بالبحث بعضَ مسائله، فحدّده معناه، وأثبتتْ عمومه، وأظهرت المعيار الذي به تستجلي مراتب الكلام، والميزان الذي به يُحكم بالمفاضلة بين بعضه وبعض، لتُفعِّل هذا المعيار بعد ذلك في كتاب الله العزيز لقياس بلاغته مُثبِتةً في نهاية الأمر إعجازه من هذه الناحية، وسموَّه فوق قدرة البشر.

خطة البحث:

اشتمل هذا البحث وفق خطته المنهجية المتّبَعة على مقدمة وستة مطالب جاءت موزّعة على النحوالآتي:

المقدمة: وتتضمن:

أ – أهمية البحث ب – إشكالية البحث

ج – أسباب اختيار البحث د – الدراسات السابقة

هـ – خطة البحث

المطلب الأول: **معنى إعجاز القرآن وتفاوته**

المطلب الثاني: **معنى الإعجاز البلاغي وأهميته**

المطلب الثالث: **بم يُعلم الإعجاز ؟**

المطلب الرابع: **هل الإعجاز للنظم والمعنى ؟**

المطلب الخامس: **معقد البلاغة وعمودها**

المطلب السادس: **اعتماد معقد البلاغة في قياس بلاغة القرآن الكريم**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النتائج والتوصيات والمقترحات

المصادر والمراجع

المطلب الأول: معنى الإعجاز وعمومه وتفاوته

يُقصد بإعجاز القرآن ارتقاؤه إلى حدٍّ يخرج عن طوق البشر وقدرتهم، أي: بلوغه شأوًمنزلةٍ عالية تقصر طاقة البشر عن معارضته، وتعجز قدرتُهم عن الإتيان بما تحدَّاهم به .

وقد تحدّى القرآنُ العربَ أن يأتوا بمثله، واستنفرهم للنهوض بذلك بشتّى الوسائل، واستحثّهم عليه بمختلف الأساليب، ولكن دونما جدوى سوى العجز.

وإنّ إعلان التحدّي وثبوت العجز كليهما معاً أمران ثابتان بالنقل المتواتر، واقعان حتماً بما لا يدع مجالاً لأدنى شكٍّ أوريب.

وهذا العجز عامٌّ في البشر جميعاً، فإنّه ليس في قدرة أحدٍ منهم كائناً من كان أنْ يُعارض القرآن أو يأتي بمثله.

وإنّما قامت الحجّة على العرب بما تقدّم من ثبوت عجزهم بعد تحدِّيهم بالنقل المتواتر، وقامت الحجّة على غير العرب بالعرب، فإذا عجز العرب عن معارضة القرآن وهم أرباب البيان وأساطين البلاغة وفحول الشعر والأدب؛ ثبت عجز غيرهم من باب الأولى؛ لأنّ العرب مظنَّة المعارضة بما أوتوه من قوة البيان وفصاحة اللسان، وكلّنا يعلم أنّ الكلام بلاغةً وفصاحةً وبياناً قد انتهى في العرب إلى غايته، ومن كان شأنه كذلك فإنه يُرتجى منه الإتيان بشيء ما في ميدان التحدّي الذي دُعِي إليه، لكنه في الحقيقة والواقع لم يأتِ العرب بشيء سوى العجز، وإذا ثبت عجزهم – وهم على ما هم عليه بلاغةً وبياناً – فعجز غيرهم أولى وأثبت.

وبناءً عليه فإعجاز القرآنِ البشرَ عن معارضته عامٌّ مُطبِق فيهم جميعاً، والكلُّ مستظلٌّ تحت مظلّة العجز، ومحاط بأسواره، لا يخرج عن هذا العموم أحدٌ قط، ولا يستثنى منه فردٌ أويُعفى منه إنسانٌ أبداً.

هذا عن الإعجاز في جهة الخلق، فماذا عنه في جهة القرآن ؟

هل الإعجاز ثابتٌ في جميع القرآن بدرجة واحدة، أم بدرجات متفاوتة ؟

وبعبارة أخرى: هل تتفاوت مراتب الفصاحة في القرآن، بحيث يكون بعضه أكثر فصاحةً من بعض، وبذا يكون فيه الفصيح والأفصح ؟

اختلف العلماء في ذلك على أقوال، وقبل بيانها لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ اختلافهم هذا وقع بعد اتفاقهم جميعاً على أنّ القرآن في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة، بحيث لا يمكن إنشاء تركيب أكثر فائدةً لمعناه من تراكيب القرآن، وإليك الآن بيان أقوال العلماء في تفاوت مراتب الفصاحة في كتاب الله عزّ وجلّ:

القول الأول: القول بالمنع، أي: بمنع التفاوت بين بعض القرآن وبعضه الآخر في مراتب الفصاحة، وأنّ كلّ كلمة منه موصوفة بالشأوالأقصى في مراتب الفصاحة، والذروة العليا في البلاغة، نعم يتفاوت الناس في تذوُّق ذلك ومدى الإحساس به.

والإعجاز في القرآن من جهة تذوّقه والإحساس به فيه الظاهر البيّن، وفيه الدقيق الغامض، ومن هذه الجهة يقع التفاوت في تلمّسه وتذوّقه.

وهذا القول هوقول القاضي أبي بكر الباقلاني .

القول الثاني: القول بالتفاوت، أي: إثبات التفاوت في مراتب الفصاحة بين بعض القرآن وبعضه الآخر، وأنّ فيه الفصيح والأفصح، والمليح والأملح.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي مجيء القرآن على هذا النحومن الجمع بين الفصيح والأفصح والمليح والأملح، ولم يأتِ جميعه على الأفصح والأملح؛ في مجيء القرآن على نحوما ذكرنا حكمة بالغة، تتلخّص في أن الله تعالى أرسل رسله وابتعث أنبياءه على مجاري العادات، ومبدأ الأسباب والمسببات، ومراعاة المألوف والمعتاد من أحوال الناس.

ولقد ثبت في مجرى كلام العرب وفق المعتاد والمألوف أن يكون فيه الفصيح والأفصح، فجاء القرآن على ما هوالمألوف والمعتاد من أحوال العرب في الكلام، ثمّ تحدّاهم بمعارضته، فكان وقوع التحدّي على المألوف لديهم في التخاطب والكلام؛ ليتمكّنوا من المعارضة، ثم يثبت عجزهم عنها، ولوجاء القرآن جميعُه بالأفصح والأملح لما صحّ التحدّي، ولكان التنصّل من إمكانية المعارضة سهلاً عليهم؛ لأنهم سيقولون: دُعينا إلى معارضة ما لا قدرة لنا عليه أصلاً، وهوأمرٌ غير ذي جدوى، ولا يُحتفى به؛ إذ كيف تصلح المعارضة في شيءٍ غير مقدور عليه، أرأيت البصير يأتي بما يُحتفى به إذا دعا أعمى إلى معارضته ؟! وهل لغلبة البصير وتفوقّه على الأعمى في النظر والرؤية شأن يُذكر في هذا السياق ؟! (1)

المطلب الثاني: معنى الإعجاز البلاغي وأهميته

أ – معنى الإعجاز البلاغي

سبق أن عرفنا أنّ إعجاز القرآن يعني ارتقاءه إلى حدٍّ يخرج عن طوق البشر وقدرتهم، وبلوغه شأومنزلة عالية تقصر طاقة البشر عن معارضته والإتيان بمثله، فإن كان هذا الارتقاء والسموالذي فاق قدرة البشر في الجانب التشريعي أُطلق على إعجاز القرآن من هذه الناحية الإعجاز التشريعي، وإن كان في مجال الحقائق العلمية والمعارف الكونية أُطلق عليه الإعجاز العلمي .... وهكذا في كافة وجوه الإعجاز.

وإذا كان ذلك كذلك فليكن المعنى المراد بالإعجاز البلاغي في القرآن الكريم هوسموالقرآن وارتقاؤه فوق قدرة البشر وخارج حدود طاقتهم، وذلك من ناحية فصاحة ألفاظه وبديع نظمه وحسن تأليفه الخاص وغرابة أسلوبه وصحة معانيه، وبلوغه من ذلك كله الذروة العليا والحد الأقصى حتى غدا فوق كلّ كلام، وصار دونه كلّ بيان. (2)

ب – أهمية الإعجاز البلاغي

هذا عن المعنى المراد بالإعجاز البلاغي في كتاب الله عزّ وجلّ، فماذا عن أهميته ؟

لا شك في أنّ لكل وجوه الإعجاز من الأهمية ما يفرض بذل الجهد بغية تقصّيه، ويُلزم بضرورة تتبّعه بالبحث والتأمّل، غير أنّ الإعجاز البلاغي له أهميته ومكانته الخاصّة، وتتجلى هذه الأهمية فيما يبدولي في النقاط الآتية:

1) إن الإعجاز البلاغي هوأبرز وجوه الإعجاز المحكيّ فيها، وأكثرها تناولاً وحديثاً، وإنّ المتتبّع لما كُتب في الإعجاز وما قيل فيه يجد أن الحديث عن بلاغة القرآن وبيانه طاغ على كلّ جوانب الإعجاز الأخرى، ومستهلكاً من جهد العلماء وبحثهم الحظّ الأوفر، ومستوفياً من طاقاتهم وملكاتهم النصيب الأكبر، وتبقى وجوه الإعجاز الأخرى مقارنةً بالوجه البلاغي في المرتبة التالية من حيث الحظوة والاهتمام، ولعله هوما حدا ببعض الباحثين والمصنفين المعاصرين إلى أن يفردوا في تصانيفهم الوجه البلاغي مستقلّاً بالدراسة والبحث في باب خاص أطلقوا عليه اسم **الوجه الخاص**، في حين جمعوا بقية وجوه الإعجاز الأخرى في باب آخر تحت عنوان **الوجه العام**، أي: الوجه العام للإعجاز.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2) ليس غريباً أن يستولي الإعجاز البلاغي كلّ هذه الحظوة وذاك الاهتمام؛ لأنّه عليه يُحمل المعنى المراد عند إطلاق لفظ الإعجاز من حيث هوعنصرٌ مكوّن من عناصر تعريف القرآن الكريم، وعلة ذلك أنّ الإعجاز البلاغي ينتظم النّسق القرآنيّ كلّه من أوّله إلى آخره، فليس في كتاب الله عزّ وجلّ في نظمه وتأليفه وأسلوبه ومفرداته جزءٌ يخرج عن إطار الإعجاز أويشذ عنه، بل إنّ الإعجاز البلاغي سمة عامّة لجميع القرآن الكريم، وهذا المعنى هوما أكسب الإعجاز البلاغي عظمةً، وأورثه أهميةً خاصّةً ليست لغيره من بقية وجوه الإعجاز الأخرى؛ لأنّه من الواضح ألا تكون كلُّ آي القرآن متضمِّنةً إخباراً بغيب مثلاً، ولا أن تكون حاملةً لحقيقة علمية من حقائق الكون ومعارفه العلمية، ومثل ذلك بالضبط يُقال في وجوه الإعجاز الأخرى.

3) ولأنّ الإعجاز البلاغي عامٌّ في جميع القرآن، ولأنّه هوالمعنى المراد بوصف الإعجاز الوارد في حدِّ القرآن وتعريفه كوصف لازم له، لا ينفك عنه ولا يفارقه؛ لأنّ ذلك كذلك فإن الأعمّ الأغلب من مباحث الإعجاز تمحورت حول الإعجاز البلاغي ودارت عليه.

ومن ذلك على جهة التمثيل لا الحصر مسائل ومباحث منها: التحدّي وبِم وقع، ونفي المماثلة، والقدر المعجز من القرآن، ومصدر الإعجاز وتفاوته...... وغير ذلك، هذه المباحث والقضايا إنّما كان مدار البحث فيه على اعتبار المراد بالإعجاز الإعجازَ البلاغي، وليس مطلق الإعجاز، وإلا فليس يخفى أنّه ليس من الضرورة أن تكون السورة القصيرة من القرآن أوما كان بقدرها متضمِّناً لإخبار بغيب أولحقيقة علمية من معارف الكون، فتكون معجزةً من هذه الجهة، وعلى فرض تضمّنها لذلك فليس يستقيم أن ينتظم ذلك القرآن كلَّه، ويشكّل سمةً عامّة له كما هوالشأن في الإعجاز البلاغي.

وما يقال في القدر المعجز ينسحب على غيره من المباحث المرتبطة بالإعجاز.

4) ومن ملامح أهمية الإعجاز البلاغي أنّه ليس يدركه إلا عالمٌ باللغة، له ذوق رفيع خاصٌّ في اجتثاث المعاني والتقاط الحكم والأسرار، وهذا الذوق إمّا أن يُنال بالدّربة والمراس والتمرين، وأمّا أنْ يكون ذوقاً فطريّاً، وما أحسن اجتماع الأمرين معاً !

وإذا تبيّنا هذا المعنى أدركنا السرّ في كون هذا الوجه من الإعجاز موجَّه بشكل مباشر إلى العرب خاصّةً، بل إلى بلغائهم وفصحائهم؛ لأنّهم كما أسلفنا هم أهل البلاغة والفصاحة، وأرباب البيان والكلام، أمّا عن عجز غير العرب – والحالة هذه – فواضحٌ؛ لأنّه إذا ثبت عجز العرب – وهم على ما هم عليه – فعجز غيرهم أولى وأحرى.

5) وأخيراً فإنّ من أكثر المظاهر التي تتبدّى فيها أهمية الإعجاز البلاغي أنّ بسلامته يسلم الدليل على أنّ القرآن كلام الله تعالى، وتقوم الحجّة عليه، وتثبت بسلامة الدليل سلامةُ القرآن، وبسلامة القرآن سلامة الإسلام كلّه.

ولما كان ذلك كذلك اتسمت معجزة القرآن بسمات ليست لغيرها من باقي معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم، كما أنها ليست لأيٍّ من معجزات الأنبياء والرسل السابقين، منها البقاء والخلود والعموم والصلاح، وهذه السمات ليست نابعةً من فراغ، وليست شيئاً للتغني والإطراء، وإنّما انطوت معجزة القرآن على ما يوجب لها هذا البقاء والخلود، ويسمها بذلك العموم والصلاحية الأبدية.(3)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المطلب الثالث: بم يُعلم الإعجاز ؟

إذا ثبت أنّ القرآن الكريم في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، وأنّ فيه الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، إذا ثبت ذلك فما السبيل إلى إدراك التفاوت بين مراتب الكلام، وما هي الآلة التي بها يتأتّى استجلاء التباين بين بعضه وبعضه الآخر ؟

الجواب: إنّه الذوق، نعم إنّه الذوق آلةُ إدراك الإعجاز في كتاب الله تعالى.

والذوق قوّة إدراكيّة تُتلمَّس بها لطائف الكلام، وتُتحصّل بها محاسنُه الخفية.

وهوإمّا أن يكون وليد الفطرة حاصلاً مع أصل الخلقة كما كان عليه الحال في العرب وقت نزول القرآن، أويُطلَب اكتسابه بممارسة علمي المعاني والبيان، والعناية بهما وطول الاشتغال بهما والدربة والتمرين فيهما، والحدّ الأعلى والغاية القصوى في ذلك أن يجتمع الأمران معاً، بحيث يصطف الذوق الفطريّ إلى جانب الاهتمام بهذين العلمين، وطول ممارستهما والاشتغال بهما.

وبقدر ما يتوافر لدى أحدنا من قوة الذوق يملك أن يميط اللثام عن مكامن البلاغة، ويكشف الغطاء عن محاسن الكلام، وتتبدّى له النّكت والمعاني الخفيةُ.

وإذا ثبت ذلك فمن البداهة أن نعلم أنّه لا إمكان لإقامة الدلالة المنطقية في هذا المقام، إذ كيف يُستدلُّ على الإعجاز بقوانين المنطق وهومّا يُذاق ؟!

نعم إثبات كون القرآن معجزاً يُعلم بالاستدلال إلا أن يكون الواحد بليغاً محيطاً بسنن العرب في التخاطب، ومجاري عوائدهم في الكلام، فإنّه يعلم من نفسه ضرورةً العجزَ التامّ عن معارضة القرآن والإتيان بمثله.

أما من لم يكن كذلك في الإحاطة بمعاقد البلاغة، ومجاري عوائد العرب في الكلام؛ فسبيله إلى العلم بإعجاز القرآن هوالاستدلال، وقد قام الدليل الإجمالي العامّ على إعجاز القرآن الكريم من خلال ثبوت عجز العرب عن معارضته بالنقل المتواتر، وثبوت عجز غير العرب من باب الأولى؛ لأنّه إذا عجز العرب وهم أهل اللسان فعجز غيرهم أحرى.

وما ذكرناه عن الذوق، وأنّه آلة إدراك الإعجاز، فهوجارٍ في تلمّس مفردات الإعجاز في القرآن الكريم، واستجلاء مكامن البلاغة فيه على جهة التفصيل لا الإجمال والوصف العام؛ لأنّ الذوق هوالعمدة في تقصِّي مقامات الكلام في كتاب الله عزّ وجل، وبه تُستظهر دقائق المعاني على امتداد الفضاء القرآني من أوّل كلمة فيه حتى آخره.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ما قرّرناه من كون الذوق آلة إدراك الإعجاز إنّما يجري في الإعجاز البلاغي وما يندرج تحته من مظاهر وأشكال، أمّا بقية وجوه الإعجاز كالإخبار عن المغيّبات والإعجاز التشريعي والعلمي .... فإدراكها متاحٌ لكلّ ذي عقلٍ عربيّاً كان أوأعجميّاً ما دام يستعمل عقله في فهم الخطاب وردّ الجواب، وما دام يسعى بمقدرته العقلية إلى استكشاف هذه الوجوه، ويَكِدُّ بما أُوتي من طاقة إلى تبيُّنها والوقوف عليها. (4)

المطلب الرابع: هل الإعجاز للنظم والمعنى ؟

من المعلوم أنّ عجز العرب عن معارضة القرآن ثبتت بعد إعلان التحدّي والدعوة إلى المعارضة، وبالتالي فما دُعوا إلى معارضته، وتُحدُّوا أن يأتوا بمثله، هوذاته الذي وقع فيه عجزهم، وقصرت عنه طاقتهم.

والذي انتهى إليه بحثي أنهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن في نظمه ومعناه وأسلوبه وتأليفه، وسيأتي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مزيد بيان لذلك عند الحديث عن طرفي الإعجاز البلاغي.

هذا وقد زعم قومٌ أنّ التحدّي المعلن في كتاب الله تعالى إنّما وقع بالكلام القديم الذي هوصفة الذات، وأنّ العرب كُلِّفَت بذلك ما لا تطيق، وإذا كان الكلام القديم هوالمتحدَّى به فإذاً هوذاته الذي وقع فيه العجز.

وهوقولٌ مردود ظاهر الفساد فيما يبدو؛ لأنّ الكلام القديم الذي هوصفة الذات لا يمكن تصوّره أوالوقوف عليه، وما كان كذلك كيف يُتحدَّى به ويُدعى إلى معارضته.

وقيل أيضاً: الإعجاز واقع باللفظ والنظم. وهوقول القاضي أبي بكر الباقلاني.

وقيل في مقابله: بل الإعجاز في المعنى لا في اللفظ.

والذي عليه الجمهور أنّ الإعجاز واقعٌ في النظم والمعنى واللفظ؛ لأنّه هوما دُعُوا إلى معارضته، وتُحُدُّوا بالإتيان بمثله. (5)

المطلب الخامس: معقد **البلاغة وعمودها**

لا شك في أنّ الكلام ليس على درجة واحدة في البلاغة والبيان، بل هوعلى مراتب مختلفة ودرجات متفاوتة، تتباين حظوظه من ذلك ارتفاعاً وانخفاضاً، لكن ما هوالمعيار الذي به نتبيّن درجة الكلام ؟ وما الميزان الذي به نقيس مراتبه، فيظهر لنا به الجيد من الرديء، ثم به كذلك نستظهر مراتب الجيد وتدرجاته ارتفاعاً، ونتلمس منحدرات الرديء ودركاته انخفاضاً ؟

هذا المعيار هوالمقصود لنا بمصطلح **معقد البلاغة وعمودها** وأساسها، وإليك فيما يأتي بيانه فنقول:

إنّ أعلى مراتب الكلام بلاغةً، وأسمى درجاته بياناً، ما كان أوفى بحاجة المبِين عن نفسه، وأبينَ لمراد قائله، وأقرب من فهم سامعه، أي: بلغ به قائله الغاية في الإفصاح عمّا في نفسه من المعاني، كما بلغ الغاية في إفهام سامعه من حيث أصاب منه موضع الإقناع والوجدان من العقل والنفس.

وإنّما يتأتّى ذلك بتخيُّر أفضل الألفاظ أداءً للمعنى، ثم من تلك الألفاظ تتم صناعة أفضل التراكيب في أبدع نظم وأحسن تأليف، ثم ينتقى لعرضها أهذب الأساليب، ويُتخيَّر لأدائها وتقديمها أفضل الطرائق.

وإنّما يُحكم على الكلام من حيث البلاغةُ والبيان بقدر حظّه مما ذكرنا، وتتفاوت مراتبه بناء على هذا المعيار، وتتباين درجاته بمقتضى ذلك الميزان، فإلى أيّ مدى استطاع الكلام أن يفي بحاجة المتكلِّم وغرضه من حيث أداؤه للمعنى القائم بنفسه أوّلاً، ثم من حيث إيصاله ذلك المعنى إلى السامع بكلتا دلالتيه المعنوية والشعورية ثانياً، ثم إلى أيّ مدى كان موفّقاً في نظم كلامه انتقاءً لمفرداته، وصناعةً لتراكيبه، وتخيّراً لطريقة عرضه وأسلوب أدائه، إلى مدى بلوغه من ذلك كلّه، وبقدر حظّه منه يُحكم عليه بلاغة وبياناً.

ولاستجلاء معقد البلاغة أكثر، وإيضاح ما تقدّم منه على نحوأجلى وأظهر نقول:

إنما مردّ الكلام إلى لفظ حامل، وإلى معنى قائم به، وإلى رابط ناظم. وبعبارة أخرى: عناصر الكلام لفظ ومعنى ونظم وأسلوب، أمّا اللفظ فحامل للمعنى، وأما النظم فضابط لصناعة التراكيب وبنائها، وأما الأسلوب فطريقة للعرض والتقديم، ولكلّ عنصر خصائص متعدِّدة متنوعة.

فمن سمات الألفاظ: الوضوح والغموض، والتآلف والتنافر، والموافقة للقياس اللغوي والمخالفة له، والخفّة والثقل، والعموم والخصوص، والاشتراك والإطلاق والتقييد، والتعريف والتنكير، والحقيقة والمجاز .... وغير ذلك.

المنارة للاستشارات www.manaraa.com

أما التراكيب فمن سماتها أيضاً: الوضوح والتعقيد، والتآلف والتنافر، وموافقة القياس اللغوي ومخالفته، والحقيقة والمجاز، والإطناب والإيجاز، والخبر والإنشاء، والنفي والإثبات ...... وغير ذلك.

إذا علمت هذه المتفرِّقات والخصائص في الألفاظ والتراكيب، فتبيّن أنّه ليس شيء منها بالذي يحسن استعماله مطلقاً، فيجمل في كلّ مقام، وليس شيء منها بالذي يسوء استعماله مطلقاً، فيقبح في كلّ مقام، بل ما يجمل منها في مقام قد لا يكون كذلك في مقام آخر، والعكس صحيح، فما يقبح منها في محلّ قد يجمل هوذاته في محلّ آخر ..... وهكذا.

وأما النَّظم فمقتضاه مراعاة المعاني والدلالة، بحيث تصطفُّ الألفاظ، وتنتظم المفردات على نحوتتلاقى فيه معانيها، وتتناسق دلالاتها؛ لأنّه لا معنى لتوالي الألفاظ بعضها بإزاء بعض إذا كان تواليها معزولاً عن دلالاتها ومعانيها، بل تنتظم المفردات على حسب المعاني، وتترتّب بإزاء بعضها بناءً على ترتيب المعاني في النفوس، فالمتكلِّم يتوخّى في ألفاظه ترتيباً ونظماً ترتيب المعاني في نفسه؛ لأنّ اللفظ خادم للمعنى وتابع له.

هذا وإنّ أسلوب كلّ متكلِّم في الإفصاح عن أغراضه وكشف مقاصده إنّما يتمثّل في الاختيار من تلك المتفرِّقات وفق ما ينسجم مع سنن العرب في كلامهم، ويتواءم مع عوائدهم في تخاطبهم، ويتوافق مع معهودهم في بيانهم.

ومردّ البلاغة إلى حسن الاختيار، ومراعاة الأحوال، والعناية بالمقامات والمناسبات.

ومردّ حسن الاختيار والانتقاء في الصناعة الكلامية إلى سلامة الذوق وسموالمَلَكة وتألُّق الحسّ البياني، فَمن سَلِم ذوقُه، وسمتْ ملَكته، وتألّقت حاسته البيانية؛ سلم كلامه وتألّق بيانه، ومن فسد ذوقه وحسّه فسد كلامه وقبح وساء بيانه.

وبناءً عليه تجد في الكلام كلاماً يُمتع النفس، ويثلج الصدر، ويقع منك حلواً عذباً يملك القلوب، ويأسر النفوس، ويطير بالألباب والعقول، وبالمقابل ربّما رأيت كلاماً فاسداً مُقزّزاً، يوقعك في نفرة منه لا تقل عن نفرة الظبية إذ ينقضّ السبع لافتراسها، مع أنّ المادة الأولية في الكلامين واحدة، والألفاظ المستعملة في المحلين أيضاً واحدة، وما ذاك إلا لحسن الاختيار، وما حسن الاختيار هناك إلا لسلامة الذوق، وما هذا إلا لسوء الاختيار، وما سوء الاختيار هنا إلا لفساد الذوق.

وما أشدّ الشبه بين صناعة الكلام من جهة، وبين إشادة الأبنية والعمران وغيرها من كثير من الصناعات الأخرى من جهة ثانية، وإنّك لوتأمّلتَ أسوأ الأبنية إشادةً وعمراناً، وأقبحها هيكلاً وترتيباً مقارَناً بأكثرها إتقاناً وإبداعاً، وأفخمها جمالاً وحسن ترتيب؛ لوتأملت لوجدتَ أنّ كلا البناءين مصنوع من مادّة أولية واحدة، ومشادٌ من لبناتٍ لا فرق بينها هنا وهناك، وبالتالي فليس مردُّ الاختلاف بين البناءين إلى المواد الأولية واللبنات والآجرّ، وإنّما مردّه إلى التفاوت الحاصل بين البنّائين، وما لكلّ واحد منهم من الملَكة والمهارة والذوق والطريقة المتّبعة في الإشادة والبناء ......

وهكذا الأمر في كلّ صنعة أيّاً كانت ما دامت تتّحد موادّها وقواعدها العامّة.

وكذلك الأمر في إنشاء الكلام وصناعة البيان، فالمادة الأولية واحدة، والقواعد الحاكمة والضابطة أيضاً واحدة، سواءٌ في المفردات والتراكيب.

وإنّما العمدة في تقصّي الفروق بين مراتب الكلام، ومردّ الفصل بين الجيّد والرديء، والحسن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والسيّئ، ثمّ مردّ المفاضلة بين الحسن والحسن الآخر، وبين الجيّد والجيّد الآخر إلى الأذواق والملكات، وإلى الموهبة والحسّ البياني كما أسلفنا.

ولكن لسائلٍ متبيّنٍ هاهنا أن يقول: إنّ إرجاع حسن الاختيار إلى الذوق والحسّ والموهبة كلامٌ عامّ فضفاض، ووصف مجمل هوبحاجة ماسّة إلى شيءٍ من التبيين والتوضيح، وإلى زيادة في الشرح والوصف حتى ينجليَ الأمر وينكشف.

وهلّا خرجتم بنا عن هذا الوصف العام إلى دقائق وتفاصيل تزيدنا إدراكاً وفهماً لما نحن بصدده، فيزداد الأمر بها جلاءً وظهوراً، وتزداد أفهامنا درايةً وعلماً ؟

وفي البيان نقول: لا شكّ في أنّ رحاب اللغة العربية واسع طلقٌ، ولا شكّ في أنّ متنها غنيٌّ بالمفردات وافر بالكلمات والألفاظ، ومن معهود العرب استعمال ألفاظ عدّة في الدلالة على المعنى الواحد، وهوما يُعرف بالترادف، لكن من معهودهم أيضاً أنّ هذه الألفاظ والمترادفات لا تتساوى في المزيّة والفضل في كل استعمالاتها وإطلاقاتها، وإنّما تتفاضل من حيث أيّها يكون أكثرَ استيعاباً للمعنى وإلماماً به، بحيث يحيط اللفظ به إحاطةً تامّة، فلا يخرج من وعائه منه شيء، وعلى قدر تلك الإحاطة يكتسب اللفظ المزيّة ويحظى بالفضل؛ لأنّ اللفظ عندئذٍ يكون أخصَّ بالمعنى، وأتمّ له وأكشف وأظهر.

وإذا علمنا هذا فلنتبيّن هاهنا أموراً:

أوّلها: هوأنّ مدار اكتساب اللفظ المزيّةَ، ونوالِه الفضلَ إنّما هوعلى المعنى، أي: من حيث أداؤه للمعنى ودلالته عليه؛ لأنّ اللفظ معزولاً عن معناه لا يعدوأن يكون صوتاً مكوّناً من حروف، وليس من فرق عندئذٍ بين / **ضرب** / ومقلوبها / **برض** /، وقس على ذلك، واللفظ من هذه الناحية لا يستأهل نعتاً، ولا يُنسب إليه فضلٌ.

ثانيها: أنّه إذا تقرّر هذا فإن أداء اللفظ للمعنى، وقياس المفاضلة بينه وبين لفظ آخر إنّما يظهر من حيث هومصطفٌّ إلى جانب ألفاظ أخرى، وعلى قدر أداء اللفظ للمعنى وإظهاره إياه من حيث هوفي سياقه الوارد فيه خاصّة، ثمّ على قدر مواءمته لمعنى الألفاظ الحاضرة معه في نفس السياق وموافقته ومجانسته لها؛ على قدر ذلك كلّه يكتسب اللفظ حظّه من الفضل والشرف.

ثالثها: أنّ اللفظ الواحد قد يتناول من المزية والفضل والإيناس والأناقة في مقام ما يفتقده جزئياً أوكليّاً في مقام آخر، بل وربما نال في بعض محاله ثقلاً مُنغِّصاً يُستكره بسببه ويُمجُّ ويُمقت. (6)

المطلب السادس: **اعتماد معقد البلاغة في قياس بلاغة القرآن**

وللوقوف على الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم نُفعِّل معقد البلاغة هذا، ونُجري مقارنةً بين كلام البشر– بالمعنى الكلّيّ لكلمة البشر – وحظّه من معقد البلاغة، وبين بيان الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز وحظوظه من معاقد البلاغة.

ولن يستهلك الأمر بنا مزيداً من إنفاق الجهد، أوكثيراً من استنزاف الطاقة حتّى نقف على حقيقة تجاوز القرآن وُسعَ الخلق، ولسوف تراه خارقاً لمألوف العرب في كلامهم وبيانهم، وخارجاً عن معهودهم في تخاطبهم، وذلك في أرقى ما أنتجته ألمع القرائح اتقاداً، وقمة ما أفرزته أحسن الأذهان صفاءً ونقاءً، وأكثرُ الطاقات والملكات وفرةً في اللغة وطولَ باع في اللسان .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولسوف تجد القرآن من ذلك في الذروة العليا، والغاية القصوى، وما سواه من الكلام دونه بكثير إلى حدّ تكاد تأبى معه الخوض في إجراء الموازنات والمقارنات؛ لتمام الاستغناء عنها بالبون الشاسع بينه وبين أيّ كلام آخر سواه.

هذا ولواتّخذنا مما تقدّم منطلقاً لتلمُّس مفاصل الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم؛ فإنّا نستطيع إجمال ذلك مع شيء من التفصيل فيما يأتي:

أمّا الألفاظ فحسبك من إعجاز القرآن من جهتها أنّك لن تجد في الألفاظ على وفرتها وكثرتها شيئاً أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظ القرآن، ولن تجد في النّسق القرآني كلّه من أوله إلى آخره لفظة ينبوبها محلُّها، أويكون غيرُها أكثر مواءمة منها من حيث هي في سياقها الواردة فيه، ولورحْتَ تتلمّس خصائص الألفاظ وسماتها على تفرّقها وتعدّدها مع إعمال الذوق والحس البياني في أرقى مستوياته، وعلى نحوما مرّ معنا؛ فإنّك سترى أنّ المفردة من كتاب الله تعالى في محلّها المقيمة فيه قد بلغتْ أعلى درجات السموّوالتألّق في ملاءمتها ومواءمتها ومناسبتها، وتبوّأت أرقى مراتب الرفعة في عذوبتها ومؤانستها ومجانستها، وإنّك لتراها في سياقها عاشقةً ومعشوقةً بآنٍ واحد، فالسياق يأبى غيرها، ويرفض الاستغناء عنها بغيرها، فهي معشوقة، وهي كذلك عاشقة لأخواتها وجاراتها من المفردات الأخرى الواردة معها في نفس السياق؛ لما يجدن فيها من المؤانسة والألفة.

وتراها في موضعها قد جمعت من متفرّقات الخصائص والمزايا ما يجمل بها مطلقاً، وتعافت معافاةً تامّة مما قد يقبح بها مطلقاً، فهي في منزلها على التمام والكمال متبرّجةً في أبهى زينةٍ وأعجب أناقة، مستوليةً على هوى النفوس، وميل القلوب، ورجاحة العقول.

هذا ولن تجد هذا السموفي تخيّر الألفاظ في كلامٍ قط مطبقاً فيه شائعاً شيوعاً تامّاً في كامل النسق القرآني، ومُهيمناً هيمنةً عامّةً شاملةً على امتداد مساحته، وسائراً في طوله وعرضه، ومستمرّاً في جميع أنحائه من غير أدنى شذوذ أونكارة، ودون أيّ تخلّف أوانفلات قط؛ لن تجد هذا السموعلى نحوما وصفنا وذكرنا في كلام قط إلا في القرآن الكريم، وهوعين الإعجاز المراد لنا.

نعم ربّما وجدتَ متفرِّقات من تلك المحاسن في كلام البلغاء والفصحاء، وربما وضعت يدك على ملامح من الحسن والبراعة في كلامهم، وتلمستَ مظاهر من المزيّة والشرف في بيان المفلقين منهم، لكن ذلك الحسن والشرف لا يمتدُّ ليشمل فضاء بيانهم كلّه، ولا يتسع ليستوعب نسق شعرهم كاملاً من أوله إلى آخره، فيطبق عليه ويهيمن فلا يشذ منه جزء، ولا ينفلت منه بعضٌ، بل على العكس من ذلك تجد ملامح الفضل والمزية مبعثرةً هنا وهناك منثورةً في زوايا وأجزاء متفرّقة من كلامهم، ولكن ستجد إلى جانب تلك المحاسن من الثغرات ونقاط الضعف ما لا يخفى أمره، وعلى فرض سلامة الكلام من الضعف فإنّه لن يرقى إلى الدرجة التي تنأى بها مفرداته عن الاستغناء عنها بغيرها مما هوأحرى وأليق، ولهذا ربما وجدت القحَّ من أقحاح العرب ينقّح قصيدته أشهراً بل وأكثر وهويستعيض مفردةً بأخرى، ويُقدّم ويؤخر حتى إذا تمّ له أمرها، فإذا عاد إليها بعد حين ربّما استحسن فيها تقديماً وتأخيراً، أوينزع مفردةً ليستبدل غيرها بها، وهكذا باستمرار وفق ما أوتيه من ملكة الذوق والحس البياني.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما مفردات القرآن وألفاظه فإنّك لن تستطيع نزع مفردة من محلها، ولوفعلت فلن تجد في لسان العرب ولغتهم مفردةً ما تقوم مقامها، وتؤدّي وظيفتها وهي تحظى بما حظيتْ به أختها من المزية والفضل والشرف.

هذا ولنا فيما ذكرنا عن إعجاز القرآن من جهة الألفاظ والمفردات غنًى عن ذكر الإعجاز من جهة تخيّر التراكيب وبديع النظم.

أما **التراكيب** فللتشابه الحاد بين خصائصها وسماتها من جهة، وسمات الألفاظ وخصائصها من جهة أخرى، فما ذُكر هناك ينسحب هنا ويذكر مثله مع ملاحظة الفرق بين كونه هناك في الألفاظ وهنا في التراكيب، ومراعاة ما لكلٍّ منهما من الخصوصية.

وأما **النظم البديع** المعجِز في كتاب الله عزّ وجلّ فواضحٌ كذلك من خلال ما تقدّم في وجه الإعجاز من جهة الألفاظ والمفردات على نحوما وصفنا؛ لأنّ مقتضى النَّظم مراعاة المعاني، وإلا فقد تقرّر معنا أنّ اللفظ مجرَّداً من حيث هولفظ صريح لا يحظى بفضلٍ ولا يختصّ بمزيّة ولا شرف، وإنّما يحظى بالفضل وينال المزية من حيث هومصطفٌّ إلى جانب ألفاظ أخرى برباط ينظمها.

وإنّما اكتسبت ألفاظ القرآن ومفرداته السموّوالتألق الذي بلغت به حدّ الإعجاز من حيث هي في مواقعها من الجملة القرآنية، ومنازلها في نسقها وسياقها القرآني، مؤدِّيةً معناها تمام الأداء، ومتآلفةً متجانسةً مع أخواتها في نفس السياق، ومعافاةً مما قد يمسّ أناقتها، أويعُكِّر صفاءها، أويطال شرفها وفضلها، ثمّ إنها في محلّ إقامتها لا غنى عنها بغيرها ولوأطبقت لسانك على جميع اللغة، وقد تقدّم أنّ النّظم قائم على مراعاة المعاني وترتيبها على حسب ترتيبها في النفس، وقد جاء النظم القرآني في الطرف الأعلى والغاية القصوى، والذي – بمقتضى هذا المعيار – فاقت كل نظم، وتقاصرت عن اللحاق به كل قدرة، ولواجتمع لها كلُّ بني البشر، وهذا عين الإعجاز من ناحية النظم.

وأما **طريقة تأليفه** وما اتسمت به من السموّوالإحكام فحسبك أن تعلم منها أنّه برغم أنّ القرآن الكريم نزل مُنَجَّماً على مقتضى الأحوال والمناسبات وعلى امتداد ثلاث وعشرين سنة، وفي كلّ مرّة كان ينزل فيه مقدار فيأمر النبيّ ﷺ بوضعه في محلّه، ثم توالت الأيام حتى إذا كمل نزوله وتمّ، وإذا به محكم مترابط، ومُنسجمٌ متآلف، لم تستطع حركة البحث والتأمّل على كثرتها، وتعدّد القصود من ورائها موزّعة بين قصد منصفٍ غيورٍ، وقصد آخر خبيث لئيم؛ لم تستطع أن تلمس فيه اضطراباً أوتفاوتاً قط، وكم حاولت من قبل الحاقدين المتربِّصين، ولكن الخيبة كانت تصدمهم في كل مرة، وتنغّصهم في كل كرّة، بل إنّ الناظر في هذا الكتاب العزيز يجد فيه من الإحكام والوحدة ما يوجب القطع بأنه كلام مُعجِز فاق قدرة البشر، وسما فوق طاقتهم، وهل الإعجاز أكثر من ذلك ؟!

بقي لنا أن نستجلي إعجاز القرآن من جهة **أسلوبه وطريقة أدائه**، وقياس مدى بلاغته من حيث تخيّره لأساليب عرضه وطرق أدائه في كشف أغراضه، وإظهار مقاصده، وبيان معانيه.

وإنّما نعني بأسلوب القرآن الكريم طريقته في اختيار مفرداته وتراكيبه، ومنهجه في تأليف كلامه، وذلك وفق مراعاة المناسبات ومقتضيات الأحوال. وهنا نلفت النظر إلى أمور هي:

1) أن الأساليب تتعدّد بتعدّد المتكلِّمين وتعدّد الموضوعات المخوض فيها؛ لأن لكل شخص أسلوبه الخاص، ولكل فنٍّ ما يُلزم بانتهاج نمط معيّن في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العرض والأداء، ومردّ ذلك التعدّد والتنوّع إلى التفاوت بين الأفراد في القدرة على مراعاة الأحوال، والعناية بالمناسبات والمقامات ومستلزماتها.

2) أنّ القرآن الكريم لم يخرج عن معهود العرب في كلامهم من حيث المادّة الأولية الخام في صناعة الكلام من جهة، ومن حيث الأنظمة والقواعد الضابطة لتلك الصناعة من جهة أخرى، بل جرى القرآن على مألوفهم، فحروفه حروفهم، وكلماته كلماتهم، وعلى سننهم بُنيتْ تراكيبه وانتظم تأليفه.

وهذا المعنى هوالمراد بوصف القرآن بكونه عربيّاً في أكثر من موضع منه من مثل قوله تعالى: (**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) / يوسف: 2 /

3) أنّ القرآن الكريم رغم وروده على معهود العرب في البيان، ورغم تحدّيهم من جهة المألوف لديهم في الكلام، فإنه على الرغم من ذلك كله أعجزهم بأسلوبه الغريب المباين لأساليب خطابهم، وبمنهجه الخاص الفريد في العرض والأداء من حيث إنّه بلغ في ذلك مبلغاً سامياً عالياً، هوعلى الغاية القصوى والذروة العليا، ولم يُعهد هذا المبلغ أومثله أوقريب منه في كلام قط أيّاً كان ذلك الكلام، بل إنّ قوى البشر عجزت عن أن تبلغ ذلك الشأو، وتضاءلت وتصاغرت أمام عظمة ذلك السمووالعلوّ.

4) ومن مُجْليات تفرُّد أسلوب القرآن وغرابة أمره أنّه خارجٌ عن معهود العرب في أساليب خطابهم، وغير خاضع لمألوفهم في طرائق بيانهم، فتراه لا تصدق عليه ملامح الشعر وأوزانه وقوافيه، وليس جارياً على سننهم في النثر على تعدّد أنواعه لديهم، بل هوأسلوب له طابعه الخاص المتفرّد، والذي أذهل أعيان البيان والكلام، وحيّر قروم الأدب والبلاغة، وهوما يقف بأحدنا وجهاً لوجه أمام إعجاز القرآن من ناحية أسلوبه، ويُخضع الرقاب لحقيقة استحالة أن يكون من صنع بشر.

شطرا الإعجاز البلاغي: المبنى والمعنى

وفي ختام تفعيل معقد البلاغة لقياس بلاغة القرآن الكريم، ومن ثمّ إثبات إعجازه من هذه الناحية، نلفت النظر إلى أنّ الإعجاز واقع في نظم القرآن وبنائه التركيبي من جهة، وفي صحة معانيه من جهة ثانية، أي: أنّ إعجاز القرآن حاصل في مبناه التركيبي من مفردات وتراكيب ونظم وتأليف وأسلوب من طرف، وفي صحة معانيه وسلامتها وصلاحها من طرف آخر، فهوإذاً معجِز بلاغياً في شطرين هما المبنى والمعنى، وهما فيه في غاية الشرف والفضل.

ولعل من ملامح إعجازه من جهة معانيه:

1) أنّ ما أتى به من المعاني، وما حمل من المضامين والمرامي، هي في صحتها وسلامتها ودقتها وصلاحها في الطرف الأعلى والغاية القصوى، وليس لأحد أن يأتي منها بمثل ما أتى القرآن، بل إنّ كلّ ذي عقل يشهد له بالتقديم في موضوعاته، وبالسمووالعلوفي مقاصده وأحكامه.

2) وفرة تلك المعاني وخصوبتها وشمولها، لا سيما وعهدنا بالقرآن مذ أُنزل حتى الآن لم تنقضِ عجائبه، ولم تنفد منحه وعطاياه، ولسنا ندري ما تحمله قادمات الأيام مما قد يسهم في استجلاء مزيد من تلك المعاني، واستظهار كثير من تلك العجائب والأسرار. (7)

الخاتمة

في ختام هذا البحث نوجز أهم ما انتهى إليه من نتائج وخلاصات، ثم نتبعها أهمَّ التوصيات والمقترحات، ولنبدأ بالنتائج.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أهم نتائج البحث:

1) إنّ إعجاز القرآن البلاغي أمر ثابت بلا شك ولا ريب، ونعني به خروج القرآن عن قدرة البشر، وسموه فوق طاقتهم، وبلوغه من ناحية بلاغته وبيانه ولغته وأسلوبه ونظمه وتأليفه شأواً عظيماً حيّر الأفهام، وأذهل العقول والأذهان، وأوقف البشرية أمام حتمية كونه كلام الله عزّ وجلّ، وأنّه ليس من صنع بشر.

2) إعجاز القرآن الكريم من ناحية بلاغته عامٌّ في القرآن كلّه، سائرٌ في جميع أنحائه، وعلى امتداد فضائه من غير أدنى تخلّف, ودون أيّ شذوذ.

3) إعجاز القرآن البلاغي على نحوما وصفنا نابع من ذات القرآن، وليس لأمر خارج عنه، وذلك وفق اعتماد معايير قياس مراتب الكلام، وبمقتضى تفعيل معقد البلاغة في استظهار المفاضلة في البيان.

4) عناصر الكلام لفظ حامل، ومعنى قائم به، وضابط ناظم للصنعة الكلامية، وطريقة للعرض والأداء، ومعقد البلاغة راجعٌ إلى حسن الاختيار بناءً على مراعاة مقتضيات الأحوال، والعناية بالمناسبات والمقامات، وحسن الاختيار راجعٌ إلى الذوق وسموالملكة والحسّ البياني.

وليس يختلف الأمر في الكلام والبيان ودرجات حسنه وشرفه عنه في الصناعات والحرف ودرجات حسنها وروعتها، فكما أنّ الأبنية تتفاوت في جمالها وفخامتها مع أنّ المادة الأولية المكوّنة لها واحدة، كذلك البيان والكلام يتفاوت في مراتب البلاغة حسناً وشرفاً مع أنّ مادته الأولية المكوّنة له واحدة.

أهم التوصيات والمقترحات

1) انتهاج سبيل الاختصار والإيجاز في عرض علوم الشريعة على تنوعها؛ ليتسنّ وضعها في متناول القراء والباحثين، فتعمّ فائدتها، ويكثر خيرها، وذلك مراعاةً لميل النفوس نحوالمختصرات ونفرتها من المطوّلات، على أن يكون هـذا النهج مضبوطاً بالدّقة والإحكام وعدم الإخلال.

2) مواصلة البحث في ميدان الإعجاز عموماً، وفي حقل الإعجاز البلاغي منه خاصّةً بغية تلمُّس المزيد من ملامحه ومظاهره، لا سيما إذا عرفنا أنّ حصيلة البحث في هذا الميدان قد لا تبلغ عشر معشار ما يُرتجى منه مما لا يزال مخبوءاً، وربما تأتي به أوبعضه قادمات الأيام؛ لأنه لا شكّ في أنّ ذوي الإنصاف في البحث عن الحقيقة، والذين يسعدون بالاهتداء إليها؛ لا شك فـي أنّهم يجدون بغيتهم في حصيلة ذلك البحث، ولا شكّ أيضاً في أنّ المتنطِعين والمتطاولين على كتاب الله يجدون فيها ما يغلقون به أفواههم، ويخرسون به ألسنتهم، وهما أمران كلاهما خير.

المصادر والمراجع

1) الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تعليق د . مصطفى ديب البغا، (ط 4: 1420 هـ / 2000 م وط 3: 1416 هـ / 1999 م)، دار ابن كثير – دمشق / سوريا .

2) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للإمام العلامة مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الشوكاني، ت: أبي حفص سامي بن العربي الأثري، (ط 1: 1421 هـ / 2000 م)، دار الفضيلة – الرياض ..

3) بحوث منهجية في علوم القرآن، موسى إبراهيم الموسى، (ط 2: 1416 هـ / 1996 م)، دار عمار – الأردن / عمان .

4) البحر المحيط في أصول الفقه، للإمام بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله الزركشي، ضبط وتعليق: د . مُحَمَّد مُحَمَّد تامر، (ط 1: 1421 هـ / 2000 م)، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله الزركشي، ت: مُحَمَّد أبوالفضل إبراهيم، دار المعرفة – بيروت / لبنان .

6) التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، للعلامة علاء الدين علي بن سليمان المرداوي الحنبلي، ت: د. عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين، (ط 1: 1421 هـ / 2000 م)، مكتبة الرشد – الرياض / السعودية .

7) التحرير والتنوير، للإمام مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، دار سحنون.

8) جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري، (ط 1: 1412 هـ / 1992 م)، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان .

9) دلائل الإعجاز في علم المعاني، للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: د. مُحَمَّد رضوان الداية ود. فايز الداية، (ط 1: 1403 هـ / 1983 م)، دار قتيبة.

10) علوم القرآن الكريم، د. نور الدين عتر، (ط 6: 1416 هـ / 1996 م)، مطبعة الصباح – دمشق / سوريا.

11) علوم القرآن، د. عبد الله محمود شحاتة، دار غريب – القاهرة .

12) قواطع الأدلة في أصول الفقه، للإمام أبي المظفّر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار السمعاني الشافعي، ت: د. عبد الله بن حافظ بن أحمد الحكمي، (ط: 1 1419 هـ / 1998 م)، مكتبة التوبة

13) محاضرات في علوم القرآن، د. غانم قدُّوري الحمد، (ط 1: 1423 هـ / 2003 م)، دار عمار – عمان / الأردن .

14) من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ، د. مُحَمَّد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي – دمشق .

15) مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ مُحَمَّد عبد العظيم الزرقاني، (ط: 1408 هـ / 1988 م)، دار الفكر .

16) الواضح في علوم القرآن، د. مصطفى ديب البغا ومحيي الدين مستو، (ط 2: 1418 هـ / 1998 م)، دار الكلم الطيب ودار العلوم الإنسانية – دمشق .

17) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د. عبد الله مُحَمَّد دراز، (ط: 1405 هـ / 1985 م)، دار الثقافة – الدوحة / قطر.

18) نظرات في القرآن، مُحَمَّد الغزالي، (ط 1: 1406 هـ / 1986 م)، دار الكتب الإسلامية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش:

---

[1] ينظر: الزركشي، البرهان (2 / 97 و99 و121 وما بعدها)، ووالشوكاني، إرشاد الفحول (1 / 170)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (1 / 104 وما بعدها)، والسيوطي، الإتقان (2 / 1018 - 1019)، وموسى الإبراهيم، بحوث منهجية في علوم القرآن: ص 125، ود. البوطي، من روائع القرآن: ص 125 .

[2] ينظر: د. البوطي، من روائع القرآن: ص 135،ود. عبد الله محمود شحاتة، علوم القرآن: ص 102 وما بعدها، ود. الحمد، محاضرات في علوم القرآن: ص 249 – 250، ود. موسى الإبراهيم، بحوث منهجية في علوم القرآن: ص 125.

[3] ينظر: د. البوطي، من روائع القرآن: ص 135 و135، ود. نور الين عتر، علوم القرآن: ص 209، ود. عبد الله محمود شحاتة، علوم القرآن: ص 102 وما بعدها، ود. مصطفى البغا ومحيي الدين مستو، الواضح في علوم القرآن: ص 163 وما بعدها، والزركشي، البرهان (2 / 97 وما بعدها)، والزرقاني، مناهل العرفان (2 / 331 و226 – 337).

[4] ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (1 / 107)، والزركشي، البرهان (2 / 111 – 112 و124)، والسيوطي، الإتقان (2 / 1009 و1011 و1018)، والزرقاني، مناهل العرفان (2 / 305).

[5] ينظر: الزركشي، البرهان (2 / 93 و95 و97 و99)، والسيوطي، الإتقان (2 / 1005 - 1007)، والمرداوي، التحبير (3 / 1354 - 1355)، والزركشي، البحر المحيط (1 / 357 و360)، والسمعاني، قواطع الأدلة (1 / 34).

[6] ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز: ص 34 وما بعدها، والزرقاني، مناهل العرفان (2 / 302 وما بعدها)، والطبري، جامع البيان (1 / 28)، ود. عبد الله محمود شحاتة، علوم القرآن: ص 115 وما بعدها، ود. دراز، النبأ العظيم: ص 89 وما بعدها، والزركشي، البرهان (2 / 101 وما بعدها)

[7] ينظر في اعتماد معقد البلاغة في قياس بلاغة القرآن: الزركشي، البرهان (2 / 95 و97 و101 وما بعدها)، والجرجاني، دلائل الإعجاز: ص 34 وما بعدها، والزرقاني، مناهل العرفان (2 / 302 وما بعدها و332 و340 وما بعدها)، والطبري، جامع البيان (1 / 28 - 29)، والسيوطي، الإتقان (2 / 1007 وما بعدها)، ود. عبد الله محمود شحاتة، علوم القرآن: ص 115، ود. دراز، النبأ العظيم: ص 89 وما بعدها، ود. موسى الإبراهيم: ص 127 وما بعدها، ومُحَمَّد الغزالي، نظرات في القرآن: ص 130 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com